القسم الثانى
النبى محمد من زاوية خاصة

obeikandl.com

(١)
محمد، النبى المصرى

وقفت مصرية عجوز أمام قبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاشعة خاضعة متبتلة، دموعها تبلل خديها، شق صمتها صوت واهن موجهة كلامها لصاحب القبر والمقام بعامية شفافة: أنت ليه ما نزلتش عندنا فى مصر؟

لم يكن لدى هذه السيدة العجوز وقتا لتشرح فيه سبب سؤالها ورغبتها، قالت كلمتها ومضت، كاشفة عن حالة من الوجد تربط المصريين جميعا بالنبى محمد، وجد يتجاوز حدود المكان والزمان والجنسية، ويتخطى حدود الإرادة الإلهية التى اختارت مكة موطنا لنبيها، ولأننا لم ندرك الرسول، فقد أكرمنا آله.

فعندما ضاقت الأرض بعترة النبي، قتلوا الحسن بالسم، وذبحوا الحسين ذبحا بلا رحمة، خرجت بقايا الرسول مولية وجهها شطر مصر، ففتحت لها أرضها الطيبة ذراعيها، وحتى لو خرج علينا باحثون ليقولوا إن رأس الحسين ليس موجودا فى قبره بمسجده الذى تزدان القاهرة به، نرفض البحث والمنطق والعلم، ونتمسك ببركة وجوده بيننا، حتى لو كان الوجود مجرد وهم.

لن تجد شعبًا فى الأرض يحتفى بالنبى مثل المصريين ولن تجد شعبًا «غنى» للنبى مثلما غنينا «فالورد كان شوك من عرق النبى فتح».

تتمسك الذهنية المصرية بحالة التكريم الإلهى والنبوى لمصر، وأرضها وشعبها، فقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم خمس مرات، واحتفى النبى بها وأوصى بأهلها خيرًا، فنحن فى مرآته الكريمة أصحاب ذمة

ورحمات، كنا أهل جدته الكبرى السيدة هاجر عليها السلام، وأهل زوجته السيدة مارية القبطية، وأخوال ولده إبراهيم الذى لم يفرح به، الذى أطلق صرخته كمدا عليه: إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

لكن هذه الذهنية لم تكتف بحالة الحفاوة، فأصرت على أن تبحث عن وجود مادى للرسول على أرضها، وبالفعل هناك إشارات تاريخية، إلى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ زار مصر، بارك سيناء بزيارته وصلى فى دير سانت كاترين.

لا توجد دلائل قوية على هذه الزيارة، لكن هناك إشارات لها فقط تحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق. وقد وردت فى أكثر من مرجع تاريخي، وقد حاولت البحث وراء هذه الرواية لدى أساتذة التاريخ الإسلامى منذ سنوات، لم أجد توثيقا لها، لكنى ارتضيت بها، فمصر تمنح الجميع روحها وشرعيتها، وليس بعيدا أن تكون قدما الرسول الأكرم وطأتها، فهى أرض الأنبياء المخلصة، وليس كثيرا عليها أن يزورها النبى محمد ليمنحها بركته، وليقف إلى جوار الأنبياء الذين نزلوها، إبراهيم عليه السلام ويوسف الذى سكنها وموسى الذى كلم الله من على جبالها، وعيسى الذى هربت به أمه إليها طالبة الحماية.

أورثت حالة الوجد التى تربط بين النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين المصريين تراثا هائلا من المحبة والحفاوة، تراثا عبر عن المحبة بجعل يوم مولد النبى عيدا نحتفل به، ولأنه عيد بهجة فقد جعلنا «حلاوة المولد» رمزا مقدسا له.

وأعتقد أن أحد مشايخ السلفية الذى أفتى بأن حلاوة المولد ليست مرغوبة، وتمثل تجاوزا فى حق الرسول، لم يفهم جيدا علاقة المصريين الخاصة بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحدث بغلظة وجلافة عن طقس

مميز، يعبر به المصريون عن فرحتهم بمولد نبيهم.

لو كان يعى كيف يحب المصريون نبيهم، لالتزم الصمت الذى هو فريضة عظمي، ولو كان يفهم رغبة المصريين فى الاحتفاء بنبيهم العظيم أعظم احتفاء لابتلع لسانه، لكن هذه مشكلة من يدعون وصلاً بالرسول، ويتمسحون بثوبه معتقدين أنهم يتحدثون باسمه، ونصبوا أنفسهم وكلاء عنه.

هذه الفتوى مردودة على صاحبها، قالها غيره كثيرون، تدخلت جهات رسمية أكثر من مرة، لمنع طقوس الاحتفال بمولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكن المصريين لم يمتنعوا ولم يتراجعوا، زادوا فى حفاوتهم، وواصلوا الاحتفال، متجاهلين تماما كل من يريد أن يعكر صفو العلاقة الشفافة الروحية الراقية والرائعة بينهم وبين النبي.

لن تجد شعبًا فى الأرض يحتفى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلما يحتفى المصريون به، ولن تجد شعبًا غنى للنبى مثلما غنينا، وتكفى الصورة الرائعة التى نسجها الخيال الشعرى حوله «فالورد كان شوك من عرق النبى فتح»، إلى هذه الدرجة يتعامل المصريون مع الرسول، على أنه من يحول الألم إلى بهجة، من يكسر حدة الشوك ويحولها إلى رائحة تمنح الحياة روحا وبريقا ورونقا.

ولن تجد صدقا مثل صدق المصريين فى طلب المدد من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم يعرفون جيدا حقيقة الدين الإسلامى الذى لا يضع بين الله وعباده واسطة.

ففى الفلسفة القرآنية تظهر حقيقة العلاقة، كل الآيات القرآنية التى تسجل الأسئلة، تبدأ الإجابة فيها بـ «قل».

و"يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي"، "ويسألونك عن الجبال، قل ينسفها ربى نسفا"، "ويسألونك عن المحيض، قل هو أذي".

لكن عندما وصل السؤال إلى الله وذاته تغيرت الصيغة، أخرج الله رسوله من المعادلة «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى». لا يريد الله واسطة بينه وبين عباده، لكن المصريين لا يلتفتون إلى هذه الفلسفة، ويصرون أن يجعلوا الرسول بينهم وبين ربهم، طالبين منه العون والمدد، فهم يطلبون من الله ما يريدون دافعين بين يدى الطلب قولهم «وحياة حبيبك النبي».

لا أنكر أن كل الشعوب المسلمة تغضب إذا ما تم الاعتداء على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى فيلم أو مقال أو رسم كاريكاتيري، لكن المصريين هم الأشد غضبًا طوال الوقت، على استعداد فعليًا أن يضحوا بأنفسهم حتى لا يلمس أحد طرف النبي، يعتبرون الدفاع عنه قضيتهم الشخصية.

يمكن أن تجد مصريا غير ملتزم تماما، يأتى من الخطايا والذنوب ما لا يستطيع أحد حصره، لكنه فجأة يدافع عن النبي، ويخرج فى مظاهرة لينـدد بما جرى له ومعه، فهو يعتبر حبه للنبى شفاعة ومنجاة له من النار، حتى لو لم يكن حافظا للآية الكريمة، «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله»، فهم يحبون النبى لذاته ولقناعتهم الكاملة أنه يستحق ذلك.

ولأن تجار الدين يعرفون جيدا أن الهجوم على النبى والإساءة إليه، هى مفتاح إغضاب المصريين، فإنهم يتهمون من يختلفون معهم، بأنهم يسيئون إلى الرسول، هذه الكلمة وحدها كفيلة بأن تشعل النار فى الجميع وتحول السكون إلى بركان هادر، وكم من معارك وهمية افتعلها هؤلاء الشيوخ بحجة أنهم يدافعون عن الرسول، وكم من ضحايا سقطوا لمجرد الإشارة إلى أنهم يسيئون إلى النبى الأكرم، مع أن الإساءة للنبى الأعظم فى عُرف المصريين كبيرة من الكبائر، ولا يجرؤ أحد على أن يرتكبها.

الرسالة الواضحة التى يحملها المصريون لكل من يتاجر بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي: خلوا لكم بضاعتكم الفاسدة ودعونا نحب نبينا على طريقتنا الخاصة.

لقد أكرم الله نبيه، احتفى به، وأذكر وأنا أواصل حفظى للقرآن الكريم أن سألنى أحد المشايخ: يقولون إن القرآن فيه كل شيء، فأين تجد فى القرآن الكريم «المثل الشعبي»، «لأجل الورد ينسقى العليق»، لم أستطع الرد، فقال: ألم تقرأ قول الله عز وجل: «وما كان الله معذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، فمن أجل النبى فإن الله لم يعذب قومه.

لم أهتم كثيرًا بالرياضة القرآنية التى كان يمارسها هذا الشيخ، فكثيرا ما كنا نمارسها، لكنى توقفت عند هذا المعني، والذى كرره المصريون مرة أخرى مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فنحن نحب آله كرامة له، ونقدر صحابته، لأنهم جلسوا معه ودافعوا عنه، فمن أجل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمكننا أن نفعل كل وأى شيء.

والآن نقتحم القلب بسؤال واضح وصريح وهو: ماذا لو كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصريا؟، لن ألتفت كثيرا لما يقال عن التغيير الذى كان سيحدث فى بنية القرآن الكريم، وما سيحدث فى توصيف الجنة، فلو كان النبى مصريًا لما كان فى حاجة للحديث عن الأنهار والظلال الممتدة، ولكنى أتحدث عن الأثر الحضارى الذى كان سيضاف إلى الرسالة العظمي.

أقدر أن الإرادة الإلهية اختارت أرض مكة للرسالة الأخيرة، لأن تأثيرها سيكون أوضح، فحالة الجهالة والتخلف التى ألمت بها كانت فى حاجة إلى نبى، كى يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهو إنجاز وحده جعل النبى الأمى على قمة البشرية، وهو ما لم يكن ليتوفر إذا نزلت الرسالة فى مصر، أرض الحضارة التى كانت ستمنح الرسالة روحا وبريقا لا تفتقده، لكنه كان سيزداد أكثر فأكثر.

لا نعترض على إرادة الله بالطبع، لكنها كانت ولا تزال وستستمر أمنية أن يخرج النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيننا، فالأرض التي جادت على البشرية بأنبياء التوحيد منذ فجر التاريخ، كانت ستزدان به أكثر، ولا يمكن لأحد أن ينكر علينا رغبتنا أو يستكثرها، فاستمتعوا بحالة الوجد التي تربطكم بنبيكم، فهي الأبقى والأخلد، وهذا يكفينا جدًا.

obeikandl.com

(٢)
٦ محاولات لسرقة جسد الرسول

أغلب الظن أن الدكتور على بن عبدالعزيز الشبل، الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود، صاحب الدراسة المشبوهة التى تطالب بنقل قبر وجثمان الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يفكر فى نقل الجثمان كمسألة عقائدية فى حد ذاتها، حيث برر ما قاله بأنه يسعى لتجنب الشرك والاستغاثة بقبر الرسول، ولكن المسألة تتجاوز ذلك بكثير، فخلف الدراسة نية خبيثة، فهو يقترب من جثمان الرسول الشريف وكأنه يتحدى ما استقر فى الذهنية الإسلامية عن أجساد الأنبياء التى لا تبلى، وكأنه يقول أخرجوا جثمان الرسول حتى نرى، هل أكلته الأرض أم لا يزال على حاله، وهو ما دعا المعارضين للدراسة والفكرة إلى أن يحذروا من فتنة عامة وشاملة.

المفاجأة أن محاولة الاقتراب من جسد الرسول التى تواجهنا الآن عبر دراسة علمية لم تكن المحاولة الأولى للاقتراب من الجسد الشريف، فعبر التاريخ الإسلامى وقعت محاولات كثيرة، استهدفت جميعها المساس بجثمان الرسول، بعضها كان بحب، وبعضها كان فى إطار الصراع ومحاولات هدم الإسلام.

منذ سنوات كانت قد وقعت فى يدى دراسة عن «فضائل المدينة المنورة» للباحث الجاد طه عرفة، لم يقتصر فيها على ما تضمه المدينة من أماكن مقدسة فقط، بل سلط الضوء أيضا على ما قدمه أهلها لها وبما أجراه الرسول صلى الله عليه وسلم فيها وعليها، من بين ما أشار

إليه كانت محاولات واضحة وصريحة لسرقة جسد الرسول صلى الله عليه وسلم، ودون أن تندهش وتقول: وهل هناك من فكَّر في سرقة جسد الرسول؟ سأضع أمامك بعضا مما جاء في هذه الدراسة، وبعضا ممن جمعته من بطون الكتب.

المحاولة الأولى:

أولى هذه المحاولات قام بها مواطنان من المغرب، حاولا تنفيذها لأسباب صليبية، وجرت أحداثها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بأكثر من ٥٠٠ سنة كاملة، وكانت الأمة الإسلامية وقتها قد وصلت إلى حالة مزرية.

فقد رأى نور الدين زنكى بعد دخوله إلى فراشه بدقائق الرسول صلى الله عليه وسلم في منامه يمسك به رجلان وضحت ملامحهما بدقة، يحاول الرسول أن يتخلص منهما لكنه لا يستطيع، نظر إليه نور الدين زنكى نظرة العاجز، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا، ولما لم يتقدم زنكى نظر إليه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: خلصنى من هذين الرجلين.

طاردت هذه الرؤيا نور الدين زنكى عدة ليالى لدرجة حرمته من النوم تماما، جلس إلى مستشاريه ووزرائه سألهم الرأى والمشورة فقالوا له: «لا بد أن تسافر إلى المدينة المنورة وتزور قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فلا بد أنه في ضيق»، وبالفعل شد نور الدين زنكى الرحال إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان هدفه أن يجد الرجلين اللذين كانا يمسكان بالرسول في المنام، نادى وزيره على أهل المدينة أن زنكى أحضر معه أموالا كثيرة ويريد توزيعها عليهم.

بدأت عملية التوزيع التى قام بها السلطان بنفسه، وكلما تقدم منه واحد من أهل المدينة تفحصه وتأمل وجهه، انتهى نور الدين زنكى من توزيع الأموال ولم يجد فيمن أعطاهم أحدا ممن رآهما في المنام، فسأل أهل المدينة هل بقى أحد منكم لم يأخذ حقه من هذه الأموال؟

وحدثت المفاجأة قالوا له: إن هناك رجلين جاءا إلى الحج من بلاد المغرب وبعد أن زارا قبر الرسول استوطنا المدينة، كانت سمعة الرجلين طيبة فقد سارا بين أهل المدينة بالتقوى والصلاح، ولم يكن يراهما الناس إلا ملازمين الصلاة فى روضة الرسول الشريفة، بدأ الشك يتسرب إلى نفس نور الدين زنكى، فطلب أن يراهما وبدلا من أن يستدعيهما إليه ذهب هو إلى بيتهما حيث يقيمان، دخل البيت وعندما رأى الرجلين، شعر أنه أمام الرجلين اللذين رآهما بجوار الرسول، طاف بالبيت فوجد فيه سردابا ينتهى إلى الحجرة النبوية الشريفة.

كان السؤال: لماذا حفر هذا السرداب؟

أنكرا معرفتهما به، لكن نور الدين زنكى أمر بتعذيبهما حتى اعترفا بأنهما قدما من المغرب فى زى حجاج ليسرقا جسد الرسول بعد أن ينبشا قبره، كان عقاب الرجلين هو القتل تحت الشباك الذى يلى الحجارة التى دفن فيها الرسول.

لكن بقيت أمام نور الدين زنكى مشكلة وهى كيف يحمى قبر الرسول، ولم يكن أمامه إلا حفر خندقا كبيرا أحاط به قبر الرسول وملأه بالرصاص المصهور، ليكون ذلك سورا عظيما يمنع كل من تسول له نفسه أن يقترب من جسد الرسول.

المحاولة الثانية:

وإذا كان نور الدين زنكى قد أنقذ الرسول من السرقة فإن الحاكم بأمر الله الخليفة العباسى غريب الأطوار الذى حكم مصر بتناقضاته وقراراته المتضاربة، قرر الحاكم بأمر الله الذى كان شيعيا، أن ينقل قبر الرسول بعيدا عن قبرى أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب اللذين دفنا إلى جواره صلى الله عليه وسلم.

لا يحظى أبوبكر وعمر بحب الشيعة على اعتبار أنهما سرقا الخلافة من على بن أبى طالب الذى كان أولى بها منهما، كان الحاكم بأمر الله على رأس هذه العملية بنفسه، فقد رأى فيها مهمة ضخمة تستلزم الإشراف عليها مباشرة، وصل إلى المدينة المنورة على رأس عدد من رجاله الأشداء لنبش قبر الرسول وقرر أن يقتل كل من يتعرض له، هذه المرة لم ينقذ جسد الرسول حاكم ولا سلطان، فقد كان الحاكم بأمر الله شديد البطش، لكن عندما كان رجال الحاكم بأمر الله يعملون إذا بهاتف يدور فى شوارع المدينة قائلا: أيها الناس إن قبر نبيكم ينبش، فهب أهل المدينة وقتلوا رجال الحاكم بأمر الله الذى فر هاربا قبل أن يمسك به أحد.

المحاولة الثالثة:

حاكم مصرى آخر هو الحاكم العبيدي، قذفت فى قلبه فكرة هائلة، وهى أن قبر الرسول لا يجب أن يكون إلا فى مصر، فأهلها يحبونه ويكرمون أهل بيته، ثم إن وجود قبر الرسول فى مصر سيكون شرفا هائلا يجب أن تحظى به مصر، جاءت الفكرة للعبيدى بعد أن نصحه بعض وزرائه بأن ينقل قبر الرسول وصاحبيه هذه المرة من المدينة المنورة إلى مصر، وبدلا من أن يزور الناس المدينة تصبح مصر هدفا ومقصدا يشد الرحال إليها.

كان مبعوث الحاكم العبيدى هذه المرة رجلا اسمه أبوالفتوح، أمره أن ينبش قبر الرسول دون أن يشعر به أحد، فقد أدرك العبيدى خطورة ما هو مقدم عليه، وصل أبوالفتوح إلى قبر الرسول بالفعل، وعندما بدأ فى نبش القبر أمسك به أهل المدينة وكادوا يقتلونه، لكن قبل أن ينفذوا فيه حكمهم هبت على المدينة رياح عاتية اقتلعت كل شىء حتى كادت البيوت أن تهدم على أصحابها، اعتذر أبوالفتوح عما أقدم عليه ووشى بتفاصيل المؤامرة كاملة، ويومها قال: «كان يجب أن أعصى الحاكم العبيدى حتى ولو قتلنى، فهذا كان أفضل عندى من أن أتعرض للموضع الشريف بسوء».

تبقى بعد ذلك محاولات صغيرة لسرقة جسد الرسول.

المحاولة الرابعة:

كان سور نور الدين زنكى بطل هذه المحاولة، فقد أقامه لحماية قبر الرسول من السرقة، لكن منفذى هذه المحاولة قرروا استغلال هذا السور فقد ربطوه بعدد كبير من السلاسل، وقرروا سحب السور بالقرب عن طريق الخيول، ولكن الخيول فشلت فى مجرد الحركة، وكأن أقدامها ثبتت فى الأرض لتعود إلى الأذهان قصة فرس سراقة، أصحابها جربوا حظهم ففشلوا ولم يعلن عنها إلا بعد سنوات عديدة.

المحاولة الخامسة:

محاولة فاشلة أخرى كان أبطالها هذه المرة أربعين رجلا أشداء، وصلوا إلى المدينة هذه المرة من سوريا وتحديدا من حلب، لم يستخدموا الحيلة لكنهم استخدموا الرشوة، أرادوا إخراج قبرى أبوبكر وعمر من حجرة الرسول الشريفة، قدموا للقائمين على أمور المسجد أموالا كثيرة وهدايا ثمينة، ونال أمير المدينة منها جزءا كبيرا وطلبوا منه أن يمكنهم من فتح الحجرة النبوية ودخولها، وافق أمير المدينة على فتح الحجرة الشريفة وأمر خادم الحجرة أن يدخلوا من باب السلام، لكن قبل أن يصلوا إلى منبر الرسول ابتلعتهم الأرض وخلصت جسد الرسول منهم، وأصبح الخادم هو مصدر الحكاية وحده، ولا يعلم أحد هل هى قصة حقيقية أم أنها أسطورة من الأساطير التى حاول الخادم نسجها حول قبر الرسول؟

المحاولة السادسة:

المحاولة الأخيرة حاول أصحابها نقب جدار القبر النبوى مباشرة دون نفق أو رشوة، لكنها كانت محاولة ساذجة فقد اكتشفت سريعا وتم قتل أصحابها الذين كانوا يريدون مصادرة جسد الرسول ودفنه من جديد فى مكان يحددونه بأنفسهم، وليتحول الرسول على أيديهم إلى مزار يتكسبون منه ويربحون من خلفه، لكن الله سلم.

كانت هذه محاولات مادية تمت بإشراف منفذيها الأشرار لسرقة جسد الرسول، وكان الهدف منها جميعا ماديا بحتا، لكن محاولات سرقة الرسول ما زالت قائمة حتى اليوم يقوم عليها وينفذها من يتحدثون باسمه، من يعلقون على صدورهم لافتة كبيرة مكتوب عليها وبخط واضح قال الله وقال الرسول، حولوا النبى إلى تجارة يتكسبون منها ويربحون من خلالها الملايين التى تتحول إلى أرصدة فى البنوك وعقارات ضخمة وسيارات فارهة وعنجهية فارغة لا معنى لها ولا أساس لها، جعلوا من اسمه حجة للقتل وقطع الرقاب، صدروا لنا أنفسهم على أنهم أوصياء على دين يريدون أن يمكنوا له فى الأرض، رغم أنهم أول من يهيلون التراب عليه، ومن يصدون الناس عن طريقه.

obeikandl.com

(٣)
الرسول السياسى

" لو كان محمد بن عبد الله موجودا الآن، لاستطاع أن يحل كل مشاكل العالم وهو يشرب فنجانا من القهوة".

عبارة قرأتها مبكرا جدا، منسوبة للكاتب العالمى برناردشو، لا أعرف على وجه التحديد هل قالها، أم أن هناك من نسبها له من هؤلاء الذين يتسولون اعترافا بعظمة وعبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم، من مفكرى ومثقفى وسياسى الغرب؟ اعتقادا منهم أن الحق ما شهدت به الأعداء.

يرهق مسلمون كثر أنفسهم فى البحث لدى من كتبوا عن رسول الله صلى الله عليهم وسلم، علهم يجدون اعترافا بعبقريته الخارقة، يأتون إلينا بعبارات وكلمات منمقة، يحتفلون بها، وكأنها دليل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم، دون أن ينتبهوا إلى أن من أشادوا به، نظروا إلى الجانب البشرى فيه، ولم يعترفوا له بنبوته، وتلقيه وحى من السماء.

مرت قرون طويلة، ورغم الكتابات الهائلة التى نثرها المسلمون على أعتاب نبيهم الأعظم، إلا أنهم فعليا لم يعطوه حقه، ولم يكتشفوا جوانب عظمته، وفى مساحة غامضة باهتة لا ضوء فى نهاية نفقها، جعلوا منه متهما، وبدأوا فى الدفاع عنه، فهذا يكتب بحثا طويلا ليقول أنه لم يكن شهوانيا، لم يتزوج إلا من أجل بناء الدولة، وأنه لم يتزوج إلا بكرا واحدة هى السيدة عائشة، وظل زوجا لامرأة واحدة هى السيدة خديجة لأكثر من خمسة عشر عاما، ولو كان يشتهى النساء لما صبر على خديجة وحدها، وهذا ينفى عنه أنه كان صاحب جيش

استخدم القوة من أجل توطيد ملكه ودولته وحماية دعوته، فأى فكرة حتى لو كانت نبيلة لابد لها من قوة تقف وراءها، تدعمها وتحميها.

لم يفكر كثيرون فى أن يضعوا ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم فى سياقه التاريخى والدينى، فتعاملوا وكأن على رأس الإسلام كله بطحة، ولم يفكروا إلا فى كيفية الدفاع عنه، شكر الله لهم سعيهم، لكن ما بهذا ينتصر الدين، الذى يتاجر به الجميع، دون أن يفكروا فى مستقبله، ودون أن يعملوا من أجل استقراره.

هنا أفتح مساحة جديدة للحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، سنضع جانبا مسألة الوحى، فلا أحد يناقش فيه أو يعترض عليها، فهو خاتم الأنبياء ودرة تاج الرسل، أكمل الله به البناء.

لكننا سنظل مع النبى محمد القائد السياسى المحنك، الذى استطاع أن يبنى دولة عظيمة من عدم، وأعتقد أن الإنجاز الأعظم الذى ينسب إليه، أنه استطاع أن يحول مجتمعا جاهليا، تطغى عليه ماديته إلى مجتمع استطاع فى سنوات قليلة أن يقود العالم، وأن يقدم للبشرية علوما وفنونا رائعة.

عندما تتأمل مسيرة الدعوة ستكتشف أن مهمة النبى صلى الله عليه وسلم لم تكن فقط تلك المهمة الكبرى، وهى أن يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى مساحات النور الشاسعة، ولم تكن مهمته أن يخرج الناس من عبادة الأصنام والحجارة إلى عبادة إله واحد فقط، ولكن كانت المهمة الأساسية هى أن يبنى الإنسان، ويضعه فى بداية طريق يسلكه من أجل بناء الحياة ومنحها قيمتها.

لم يتجاهل النبى صلى الله عليه وسلم أنه بعث إلى مجتمع قبلى، لديه أدوات إنتاجه، يعرف هو من اللحظة الأولى أنه سيلغى العبيد، فلا عبيد إلا لله وحده، لكنه ما كان ليفعله مرة واحدة، ليس لأنه كان يخشى المجتمع، ولكن لأنه كان يدرك أنه لو ألغى الرق مرة واحدة

لأنهار جانب كبير من جوانب اقتصاديات المجتمع، وهو ما لم يكن ليسمحوا به أبدا، فجعل عتق الرقاب تقربا من الله، ثم جعله من مكفرات الذنوب، لم يصدم مجتمع يعتمد على العبيد فى العمل وتسيير أمور الحياة المختلفة، وسيطلب منهم أن يستغنوا عنهم بأمر مباشر لا يقبل تأويلا ولا تحويرا، فقاد المجتمع إلى أن يفعل ما يرفضه تماما دون أن يحدث به انقلابا.

هؤلاء العبيد الذين حررهم بالحيلة، كانوا هم وقوده فى حربه، جمعهم حوله، لأنه كان يعرف جيدا أنهم الأكثر حاجة إليه، إنهم يريدون حياتهم، وهو يملك هذه الحياة، لم يذهب إلى علية القوم الذين لن يضيف لهم الإسلام عزا ولا جاها ولا سلطانا ولا مالا، بل على العكس تماما سيسلب منهم كل ذلك، كان يعرف أن هؤلاء سوف يحاربونه ويقفون له بالمرصاد، فولى وجهه عنهم، كان يعرف أنه سيأتى يوم، سيعينه الفقراء الذين نصرهم على أغنياء القوم الذين دافعوا عن أموالهم وجاههم وسلطانهم بكل ما يملكون.

دعوة الإسلام كانت للناس جميعا، لا فرق بين أبيض ولا أسود، ولا غنى ولا فقير، ولا سيد ولا عبد، لكنه لم يبدأ دعوته للناس جميعا فى قومه، ذهب إلى الذين يحتاجون حراكا اجتماعيا، وكانت كلمة السر لديه، أنه سيحررهم من عبوديتهم ويجعلهم سواسية مع السادة، هل يمكن أن يطمع هؤلاء فى أكثر من هذا، هل يمكن أن يقدم لهم أحد حلما مكتمل الأركان أفضل من هذا؟

لم يكن لهؤلاء الذين استهدفهم النبى صلى الله عليه وسلم فى بداية دعوته، ما يخسرونه، إنهم أمام رجل من قومهم يعرفهم ويعرفونه، لم يجربوا عليه كذبا، يدعوهم لأن يكونوا سادة، ما الذى يمكن أن يخسروه إذا صدقوه، لو اكتشفوا أنه كذب عليهم سيعودون عبيدا، فلماذا لا يجربون، ولماذا لا يحاولون؟ فربما تحقق الحلم فى النهاية.

فى كل يوم كانت الرؤية تتضح أمامهم، كانوا يتمسكون أكثر بدينهم وبنبيهم، بدأ السادة يعذبونهم، ما الجديد؟

فقد كانوا يعذبونهم وهم تحت أيديهم، على الأقل تعذيبهم وهم تحت كلمة الاسلام له قيمة ومعنى، فهم يعذبون من أجل هدف يسعون لتحقيقه؟

هل فرضوا عليهم الجوع؟

لقد عاشوا طوال عمرهم جوعى، لا يأخذون من ساداتهم إلا ما يسد رمقهم، لم يخرج أحد من دينه، ليس لأنهم تأكدوا من صدقه فقط، ولكن أيضا لأنهم شعروا بذواتهم، عاملهم النبى كبشر لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات.

إننا أمام قائد عظيم، يعرف جيدا ما الذى يريده، اقتحم مجتمعا قاسيا متشددا، لا يمكن أن يتسامح مع من يريد أن يؤسس لعلاقات اجتماعية واقتصادية جديدة، غزا قلوب الضعفاء الذين يظلون طول الوقت فى حاجة لمن يجبر خاطرهم، وعندما يطرق بابهم لا يفرطون فيه أبدا.

منح النبى صلى الله عليه وسلم فقراء قريش وعبيدها ما يجعلهم يحافظون عليه بأرواحهم، ولذلك كان سهلا جدا أن يهزم جيش المسلمين الذى لا يزيد بأى حال من الأحوال عن ٣٠٠ مقاتل، جيش قريش الذى يزيد على ألف مقاتل.

قالوا كثيرا إن الملائكة قاتلت مع المسلمين فى غزة بدر، قالوا إن جبريل عليه السلام كان يقود المسلمين بفرسه، لن أقول لك أنه لا يوجد دليل يمكن أن نعتمد عليه فى التثبت من هذه الأساطير، لكن لدى من المنطق والعقل ما يؤكد أن شيئا من هذا لم يحدث على الإطلاق.

كانت العلاقة بين الأرض والسماء فى رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم، هى علاقة الكلمة فقط، وكان العقد الإلهى الجديد الذى نزل به خاتم الأنبياء والمرسلين، أنه لا معجزات مادية على الإطلاق،

معك كلمة الله، وأسباب الأرض، ومن أسباب الأرض والحرب أن المسلمين وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام جيش يريد أن يهلكهم وينفيهم من على الأرض تماما، فقاتلوا ببسالة، ليس دفاعا عن دينهم فقط، ولكن دفاعا عن رقابهم أيضا، إنهم كانوا يقاتلون معركتهم التى يعرفون أن الهزيمة فيها معناها فناءهم، وانتصارهم يعنى حياة جديدة، فى مواجهة جيش ذهب فقط من أجل تأديب من تطاولوا عليه.

هل قال النبى صلى الله عليه وسلم هذه المعانى لمن خرجوا معه للقتال فى بدر؟

لم يقل شيئا أبدا، كان يعرف فقط، أن رجاله يعرفون أن المعركة فاصلة بين الحياة والموت، بين الفناء والخلود، فدفعهم إلى ساحة القتال وهو يعرف أنه يدافعون عن كل ما يملكون.

إننا أمام عقلية سياسية من طراز نادر، يعرف ما يمتلكه من أدوات، يوظفها فى مكانها الصحيح، ويطمئن إلى أن النتائج قادمة.

كان جيشه قد كبر وانتصر، واغتر أيضا، دخلوا إلى معركة حنين، قال أحدهم: لن نهزم اليوم من قلة، افتقد رجال النبى منطق الأخذ بالأسباب فدارت المعركة عليهم، ولأنه كان يعرف أن هؤلاء يلتفون حوله كنبى، لم يتحدث كقائد سياسى، ذكرهم بما منحته لهم النبوة، صرخ فيهم: " أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب".

ستقولون إنه كان يخاطب فيهم خوفهم على الإسلام وحميتهم وحماسهم فى الدفاع عنه، سأقول لكم إن هذا كان صحيحا جدا، لكنه أيضا كان يذكرهم بما منحهم هذا الدين، وهذا النبى من كرامة وعزة لم يكن ليحصلوا عليها أبدا بدونه، جمعوا أنفسهم من جديد، وانتصروا.

كان النبى محمد يعرف مفاتيح القوة لدى رجاله، كان يدرك كيف يحركهم، ولذلك انتصر بهم.

(٤)
المال السياسى فى الاسلام

فى طفولتنا البعيدة كان خطيب المسجد يتحدث باكيا عن الاتهامات التى يلاحق بها الغرب النبى محمد صلى الله عليه وسلم، صرخ فى الموجودين قائلا لهم: هل تتخيلون أن أحد أعداء الاسلام يقول على النبى الأعظم إنه قاطع طريق، غضب الموجودون، وتنافسوا فى الدعاء على هذا المجهول الذى لم يذكر الخطيب اسمه، فكيف يقول هذا على النبى.

انفعلت كما انفعل الآخرون، لكن ظل السؤال ملازما لى، إلى أى شئ استند هؤلاء الذين اتهموا النبى صلى الله عليه وسلم بهذه التهمة الشنيعة؟، هل هناك ما يدعم كلامهم من وقائع وأحداث فى السيرة النبوية الشريفة؟ ما هى مبرراتهم؟ مؤكد أنهم رأوا ما لا نراه، أو أنه يعرفون ما لا نعرفه.

كنا نتعامل مع ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم قبل غزوة بدر، على أنه حق للمسلمين، خرج النبى من مكة تاركا وراءه كل شئ، وخرج أصحابه الكرام فى أعقابه تاركين وراءهم بيوتهم وأموالهم، ولم يكن اعتراضه لقافلة قريش إلا محاولة ليحصل على بعض ما فقده هو وصحابته، كنا نرى فى هذا حقا مطلقا لا شبهة فيه ولا شائبة تشوبه من أى ناحية، لكن يبدو أن هناك من لم يقرأ نفس قراءتنا للحدث، رأى فيما فعله النبى اعتداء على حق الغير، ما كان يجب أن يقع فيه.

من زاوية مختلفة يمكن أن نقرأ ما حدث ليس فى مقدمات غزوة بدر فقط، ولكن فى أحداث ومواقف كثيرة فى حياة النبى صلى الله عليه

وسلم، فنحن أمام صاحب دعوة، قرر من الوهلة الأولى أن تكون عالمية للناس جميعا، يدخلها القاصى والدانى، ولأنها كذلك فلابد من دعم هائل يقف وراءها، فالأفكار العظيمة لابد لها من قوة كبيرة تسندها، والقوة الكبيرة حتما تحتاج إلى مال كثير، وأعتقد أن واحدا من هموم النبى صلى الله عليه وسلم كان تمويل دعوته، والإنفاق عليها، بما يبقيها وينميها، ويجعلها مستمرة.

كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم فقيرا، اضطرته ظروفه لأن يعمل من أجل رزقه، مات أبوه دون أن يترك له شيئا، وحتى عمه أبو طالب الذى تكفل به بعد وفاة جده عبد المطلب، كان رجلا صاحب عيال بلا مال، رعى الغنم، ولم تتحسن أحواله المادية قليلا إلا بعد أن عمل فى تجارة السيدة خديجة التى ائتمنته على مالها، ثم ائتمنته على نفسها بعد ذلك عندما خطبته إلى نفسها.

كان مال السيدة خديجة مهما جدا كى تقف الدعوة الإسلامية على قدميها، فبعد أن تزوجها النبى وكان عمره خمسة وعشرين عاما، دخل فى فترة إعداد روحى امتدت لخمسة عشر عاما، عندما تلقى الوحى ليبشره بأنه رسول من السماء إلى أهل الأرض.

كان مال السيدة خديجة الذى ورثته عن أزواجها السابقين ومن أرباح تجارتها، كفيلا بأن يمنح النبى صلى الله عليه وسلم فرصة لأن يمارس طقوسه الروحية، بعيدا عن أعباء توفير المال لأهل بيته، لم تطلب منه شيئا، كل ما أرادته أن يتفرغ لما يفعله فى غار حراء من تأمل وعبادة.

لو لم يكن مال السيدة خديجة موجودا لما استطاع النبى أن يتفرغ لعبادته، ولما استطاع أن يصمد أمام حالة المقاطعة التى أعلنتها قريش ضد بنى هاشم، كانت الحرب قد وصلت إلى مرحلة حرجة، فقررت قريش ألا تبيع ولا تشترى من بنى هاشم جميعا، بل حاصرتهم فى شعب

أبى طالب، معتقدة بذلك أنها يمكن أن تنهى دعوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى مهدها.

استمر الحصار ثلاث سنوات، كانت تقريبا من أصعب السنوات فى عمر الدعوة الإسلامية، لولا أموال خديجة التى كانت سندا ودعما هائلا لبنى هاشم جميعا، فلم تستطع قريش أن تخضعهم، وبعد أن انتهى الحصار فى تقديرات تاريخية عديدة، كانت السيدة خديجة قد أنهكت ماليا، وأصبحت ثروتها فى مهب الريح، فقد بدأت السيدة الغنية تعانى من أزمات اقتصادية حادة.

كانت ثروة السيدة خديجة داعمة للنبى صلى الله عليه وسلم فى صراعه مع قريش، عندما فكر سادة قومه أن يساوموه، رد على عمه أبى طالب بالكلمة التى سارت مثلا على صلابته وجرأته، قال له: " والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

كان النبى مؤيدا من الله فى رده، كان واثقا من الحق الذى يدعو إليه، لكنه كان واثقا فى الوقت نفسه من أن هناك ما يسنده، ولن يجعله يحتاج لأحد.

هل يمكن أن نطلق على مال السيدة خديجة، أنه مال سياسى، اختلط بالدعوة الإسلامية فى بدايتها، وكان سببا فى وقوفها على قدميها، يمكن أن نقول ذلك، دون أن يكون فيما نقوله عيبا على الإطلاق، فنحن نتحدث عن دعوة تسعى إلى إقامة دولة، بل إنها تسعى إلى هزيمة الإمبراطوريات القائمة ووراثتها، لتصبح هى سيدة العالم.

مال آخر يمكننا أن نعتبره سياسيا أيضا، وهو مال سيدنا عثمان بن عفان الخليفة الثالث، والذى كان أحد سادات قومه قبل أن يدخل الإسلام، وكان واحدا من ممولين الدعوة الكبار، ووصل به الحال إلى

تجهيز جيش النبى فى أكثر من واقعة حربية، لم يبخل بشئ، صحيح أن أبو بكر الصديق كان يتبرع للدعوة، وعمر كان يتبرع للدعوة، لكن عثمان بن عفان كان يضع ماله كله فى خدمتها، وقد يكون هذا التمويل تحديدا هو ما دفعه ليكون فى مقدمة صفوف الصحابة الكبار، فالأمر لم يكن متعلقا بكونه أحد السابقين إلى الإسلام، ولكن لأنه كان واحدا ممن قدموا ثروتهم ليقف الإسلام فى معركته مع أعداءه موقفا صلبا.

ورغم حالة الزهد الشديدة التى كان يعيش فيها وبها الرسول صلى الله على وسلم، إلا أنه لم يكن يمانع إطلاقا فى أن يكون أصحابه ثروات طائلة، وإذا جاز التعبير فيمكننا أن نقول أنه كان هناك مليونيرات حول الرسول، ومن بين هؤلاء يمكن أن نقابل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وأرضاه، الذى قيل إنه عندما مات كانوا يقتسمون الذهب الذى تركه وراءه بالفئوس.

كون عبد الرحمن بن عوف ثروته على عين النبى صلى الله عليه وسلم، فبعد أن استقر المهاجرون فى المدينة، وبدأ النبى بخطوته العبقرية فى التآخى بين المهاجرين والأنصار، ذهب ابن عوف بأخيه من الأنصار، الذى بدأ يتقاسم معه ماله وبيته، إلا أنه رفض تماما أن يأخذ شيئا، قال لأخيه الأنصارى: دلنى فقط على السوق، ومن هناك بدأت رحلة جديدة فى تكوين الثروة.

كانت ثروة عبد الرحمن بن عوف ومشاغله فى التجارة تعطله كثيرا عن مباشرة واجباته تجاه الدعوة، كان يتأخر أحيانا عن الصلاة، لم يشهد بعض الأحداث المهمة، لكنه لم يكن يتأخر أبدا عما يطلب منه من أجل تمويل عمليات المسلمين تجاه أعداءهم خصوم الله، ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف جيدا الدور الذى قام به بن عوف من أجل الدعوة، لم يبخل عليه، فجعله واحدا من العشرة المبشرين بالجنة، وكانت هذه مكافأة مستحقة لرجل بذل كل ما فى وسعه من أجل نصرة الدين.

كان النبى صلى الله عليه وسلم صاحب دعوة، يعرف ما الذى تريده على وجه الدقة، جمع إليه الجميع، لم يبخل عليهم بدعم معنوى أو نفسى، بل رفع من دعم دعوته إلى المكانة التى تليق به ويستحقها، ولم يكن هذا خافيا على أحد.

وعليه فلم يكن المستشرق الذى اتهم النبى بأنه قاطع طريق – طبقا لخطيب قريتنا الذى لم يقل لنا اسم هذا المستشرق – على حق، فهو لم يفهم ما جرى على أرض مكة قبل أكثر من أربعة عشر قرنا، لم يفهم أن دعوة عظمى كانت تتكون، وأنها كانت فى حاجة إلى دعم، وأن النبى وأصحابه لم يخرجوا ليقطعوا الطريق على أبى سفيان رغبة فى سرقة أموال قريش، فقد كانت هذه هى أموال النبى وأصحابه، ولأن الحرب كانت قائمة بين معسكرى مكة والمدينة، فقد فرضت شروطها ومتطلباتها، وليس من العدل أن نتهم من خرج ليحمى دعوته التى هى لله بأنه قطع الطريق على من كانوا يخططون ليل نهار لحصاره والقضاء عليه.

(٥)
مصاهرات الدين والثروة والسلطة

لم يكن الزواج فى حياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم مجرد طقس اجتماعى، لم ينزل فى أغلبه على مقتضيات العاطفة، بل كان زواج رجل جاء بدعوة يرغب لتأسيس دولة تحميها، ولم يكن زواجه من سيدات عديدات إلا خطوة فى تدعيم الدعوة والدولة معا.

لا أميل إلى من يقول إن النبى صلى الله عليه وسلم استفاد من مال خديجة فى نشر دعوته فى سنواتها الأولى، وأنه لم يتزوجها إلا لهذا الغرض، لأن خديجة كانت الساعية إليه، ثم أنه عندما دخل بيتها زوجا لم يكن قد تلقى الوحى بعد، ولذلك يمكن بسهولة أن نبحث عن دوافع أخرى وقفت وراء زواج النبى من السيدة خديجة غير المال.

بعد السيدة خديجة تحول الزواج لدى النبى إلى ما يشبه ضرورات الدعوة.

الأمثلة على ما أذهب إليه واضحة، والدلالات أيضا.

وليكن هذا هو سؤالنا الأول: هل تزوج النبى صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة رضى الله عنه لأنه كان يحبها، أم لأنها كانت زوجة وزيره الأولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه؟

أغلب الظن – الذى هو ليس إثما بالمرة – أن الزواج كان من أجل أنها ابنة أبى بكر الصديق، صحيح أن السيدة عائشة وهى البكر الوحيدة التى تزوجها النبى أصبحت حبيبة النبى ومعشوقته، وهى التى قال فيها وعنها إن أحب النساء إليه عائشة، وأحب الرجال إليه أباها،

لكن هذا لم يمنع أن دافع الزواج الأول كان أن يكسب قلب وزيره إليه.

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه رجل النبى الأول، صديقه الذى صدقه حتى قبل أن يسمع عنه، كان فى تجارة خارج مكة، عاد إليها ليجد من يقول له إن صديقه محمد يدعى أن الخبر يأتيه من السماء، دون أن يسأل قال: إن كان قال فقد صدق.

كان أبو بكر هو رفيق الخطر، اختاره الرسول ليكون صاحبه فى رحلة الهجرة، وهى الرحلة التى تزوج بعدها السيدة عائشة، فعندما هاجر من مكة إلى المدينة لم تكن على ذمته أية امرأة.

قد تقول إن العلاقة بين النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق لم تكن أبدا فى حاجة إلى مزيد من التوثيق والتقريب والثقة، سأتفق معك تماما، لكن فى مجتمع مثل قريش النبى وأبو بكر أبناؤه، يقوم على الفخر بالأنساب، يأتى الزواج كأحد عناصر تقوية الروابط وضمان اللواء والمساندة التى بلا حدود.

الأمر نفسه تكرر بين النبى صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه، كانت ابنته السيدة حفصة قد طلقت من زوجها، ولما كانت المرأة فى مجتمع النبى لا تبقى بدون زواج، ولكن لابد أن تتزوج على وجه السرعة إذا ما طلقت، ذهب عمر إلى صديقيه أبى بكر الصديق وعثمان بن عفان، فأعرضا عنها.

لم تكن السيدة حفصة ذات جمال لافت، وكان حظها فى الزواج قليل، ذهب عمر رضى الله عنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو صاحبيه اللذين لم يقفا إلى جواره ويقبلان الزواج من ابنته، طيب النبى خاطره، ومنحه ربما أكثر مما يتمنى.

قال له، ابنتك يتزوجها من هو خير من أبى بكر وعثمان، وعثمان يتزوج من هى خير من ابنتك.

فهم عمر رضى الله عنه الرسالة على الفور، عرف أن الرسول يعرض عليه الزواج من السيدة حفصة رضى الله عنها، وقرر أن يزوج عثمان لابنته رضى الله عنها، فلا أفضل من أبى بكر وعثمان إلا النبى، ولا أفضل من حفصة إلا ابنة الرسول.

هل جبر النبى بخاطر عمر بن الخطاب؟

لقد فعل هذا بصورة كاملة، وقد يكون لهذا الموقف تحديدا بالغ الأثر على علاقة الفاروق بالنبى وعمله من أجله، وبقائه على الوفاء له.

لقد كان عثمان بن عفان الثالث فى ترتيب وزراء النبى صلى الله عليه وسلم، لم يخدم الدعوة فى سنواتها الأولى بمجهوده وتواجده فقط، ولكن بماله أيضا، منحه النبى شرفا معنويا لا يجاريه فيه أحد، فقد حصل على لقب ذى النورين لزواجه من اثنتين من بنات الرسول، تزوج من السيدة رقية وعندما ماتت تزوج من السيدة أم كلثوم، وكأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يحتفظ به قريبا ونسيبا لأطول فترة ممكنة.

الوزير الرابع للنبى صلى الله عليه وسلم كان على رضى الله عنه.

لم يكن النبى فى حاجة لأن يوثق علاقته بعلى، فهو ربيبه، الطفل الذى أخذه من بيت أبيه ليتكفل به، والمناضل الذى بات فى فراش الرسول ليلة الهجرة، ليكون فداء له، لكن ورغم كل هذا القرب إلا أن النبى زوج عليا من ابنته التى هى الأقرب إليه، السيدة فاطمة.

فى زواج على من فاطمة كان النبى أبا، إنه يعرف أن رجال قومه يتزوجون أكثر من امرأة، وهو ما أراده على، لكن قبل أن ينفذ ما انتواه، ذهب إلى النبى، ليس لأنه والد زوجته فقط، ولكن لأنه الأب والأخ والصديق، وكانت المفاجأة أن النبى رفض تماما أن يتزوج على امرأة أخرى، قالها له صريحة: من آذى فاطمة، فقد آذانى.

كان النبى يعرف إذن أن دخول امرأة على امرأة أخرى فى بيت زوجها، مما يؤذى، كان يعرف أن هذا ضد الطبيعة البشرية، ولذلك رفضه لأبنته، رغم أنه فعل ذلك أكثر من مرة، وكأنى بالسيدة عائشة رضى الله عنها كانت تتألم كلما دخلت زوجة جديدة إلى فراش النبى، كانت تعرف أنها الأحب إليه نعم، لكنها كانت تعلم أيضا أن هناك أخرى تشاركها فى مشاعره وأنفاسه.

كيف يمكن أن ننظر إلى هذه المصاهرات؟

إننا أمام حالة من دمج الدين بالسياسة بالسلطة من خلال الإناء العائلى، كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرف أنه يؤسس دولة، لم يكن الأمر عنده مجرد فكرة يرى من خلالها تغيير أنساق إجتماعية أو أخلاقية فى مجتمع ما، كان يريد لهذه الفكرة قوة تسندها وتساعد فى إنتشارها، ولأنه كان وحيدا، فقد قرر أن يجمع من آمنوا بفكرته هؤلاء، ليس بقوة الفكرة فقط، ولكن من خلال الإرتباط العائلى الذى يرتب على أصحابه واجبات أكثر، يجعلهم ظهرا لبعضهم البعض، مناصرين لبعضهم البعض، وهو ما جرى على وجه التحديد بين النبى صلى الله عليه وسلم وزوجاته الأربعة.

لقد خطا النبى فى زيجاته الأخرى خطوات واسعة فى جعلها فى خدمة الدعوة، فهذه يتزوجها من أجل تأليف قلوب قومها، وهذه يتزوجها ليقدم مثلا واضحا لقومها أن الإسلام لا يذل من يأسرهم بل يكرمهم، والأمثلة كثيرة ودالة فى هذا السياق.

قد ترفض ما ذهبت إليه جملة وتفصيلا، وقد تقول أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يفكر بهذه الطريقة أبدا؟

سأحترم ما تعتقد أنه دفاع عن النبى بالطبع، وسوف أكبر فيك ذلك بحق، لكن من قال لك أن النبى يحتاج منك دفاعا عما فعله؟ من قال

لك أن ما فعله عيب ويريد من يرفع عنه هذا العيب؟ من قال لك إن الإسلام ضعيف إلى هذه الدرجة لتسعى إلى تحسين صورته، فتنكر ما حدث على الأرض بالفعل؟

النبى صلى الله عليه وسلم بالنسبة لى كان قائدا لدولة، لديه مشروع سياسى يريد تنفيذه، المشروع كانت تظلله رسالة السماء، ما فى هذا شك، لكن السماء وضعته على أول الطريق، ثم تركته ليأخذ بالأسباب، ليعلمنا أن الفكرة النبيلة السامية تحتاج دائما إلى القوة والحيلة والتخطيط، والقوة تحتاج دائما لمن يأخذ بالأسباب حتى يحقق أصحابها ما يريدون، وهو ما فعله النبى بالضبط، وعليه فهو لا يحتاج إلى دفاع، بقدر ما يحتاج إلى من يسير على طريقه، ويعرف كيف كان يتصرف من أجل نصرة دينه.

(٦)
الهجرة عملية مخابرات بلا معجزات

لدى فكرة لا أتحرج من طرحها أبدا، وهى أن الإسلام انتشر بحد السيف.

هذه قناعتى التى تداخل فى تأسيسها لدى تاريخ الدعوة الإسلامية ومرويات الحديث التى يحاول البعض تأويلها على نحو تشعر معه وكأن على رأس الإسلام بطحة، أو أنه دين ضعيف يريد أصحابه تحسين صورته، فيبعدون عنه ما يعتقدون أنه يمكن أن يكون شبهة، أو ثغرة ينفذون إليه منها.

لا أتهم من يرفضون فكرة أن الإسلام انتشر بحد السيف بشئ على الإطلاق، هم فى النهاية يحملون نية حسنة، لكن من قال لهم إن السيف شر، إنه تعبير عن القوة، والدعوة الإسلامية التى جاء صاحبها ليغير العالم ما كانت لتنجح دون قوة.

بحث الرسول عن القوة بدأ من الأيام الأولى لدعوته، هل يمكن أن يفسر أحدكم دعاء النبى صلى الله عليه وسلم بأن يعز الله الإسلام بأحد العمرين، إلا أنه كان يطمح إلى أن تكون قوتهما وبأسهما فى خدمة الدين الجديد، كان النبى يقصد عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام الذى هو أبو جهل صاحب أكبر رصيد من الكراهية والبغض لدى المسلمين، والذى يضرب به المثل حتى الآن فى الجهالة والغباء والكفر والقسوة، فكأن رفضه دعوة النبى فى دخول الإسلام كان سببا فى أن تصاحبه اللعنة إلى يوم القيامة.

كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرف قدر ومقدرة الرجلين، لم يكن منحازا لأى منهما، أحدهما كان يكفيه، ليمنحه جبهة قوة كان فى حاجة إليها، دخل عمر الإسلام فأوجست مكة فى نفسها خيفة، ولأن عمر لم

يكن كافيا، فقد من الله على النبى بدخول عمه حمزة الإسلام، فقويت شوكته، على الأقل أصبح يجاهر بما لديه.

لم يمنع دخول عمر بن الخطاب الإسلام أن تتجرأ قريش على أصحاب النبى، كانوا يعذبونهم ويسخرون منهم فى محاولة لإجبارهم على ترك دينهم الجديد، لم يكن أحد يتعرض لعمر خوفا من أن يفتك بهم، كان هو الذى يتعرض لهم، ربما ليحصل على نصيبه من الأذى، حتى لا يكون عند الله أقل من هؤلاء الذين يعذبون.

فى واحدة من المرات القليلة التى تعرض فيها عمر بن الخطاب إلى أذى قريش، ورأى مدى ما وصل إليه أصحابه من بؤس، استمع إلى الآية الكريمة التى كان النبى يؤنس من معه بها: "سيهزم الجمع ويولون الدبر"، ابتسم عمر وقال ربما فى حسرة وربما فى تعجب أو دهشة، وربما فى سخرية أيضا: أى جمع، وأى دبر يا رسول الله؟!

دارت الأيام بالمسلمين، ولما جاء يوم بدر، رأى عمر بن الخطاب الجمع أمامه يولون دبرهم خوفا من جيش المسلمين الذى لم يتجاوز وقتها ٣٠٠ مقاتل، فقال والدموع فى عينيه: صدقت يارسول الله، سيهزم الجمع ويولون الدبر.

خلال الثلاثة عشر عاما التى قضاها النبى فى مكة يستند إلى الحيل التى يمكن أن نطلق عليها مخابراتية كاملة.

فى حادث الهجرة تمثلت كل آيات البراعة الأمنية والمخابراتية التى تمتع بها النبى صلى الله عليه وسلم، لم تمنعه دعوته الجديدة أن يستعين بمن لا يزال على كفره حتى يكون دليلا له فى رحلته إلى المدينة، كان عبد الله بن أريقط هو من قاد راحلته دون أن يخشى النبى إرشاد الدليل عليه.

وهنا أعتقد أن اشتباكا منطقيا حان أوانه.

حاول كتاب السيرة أن يصوروا الهجرة على أنها عمل سماوى، تدخل السماء منذ البداية لإنقاذ رسولها من أنياب من يريدون قتله، فعندما خرج النبى من بيته، كان الأربعون شابا من قريش يقفون مستعدين للانقضاض عليه، لكنه سار من بينهم دون أن يروه، ولأنه لابد من تعظيم المعجزة، فقد أسندوها إلى آية كريمة "وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون".

الرواة الشعبيون زادوا فى الشعر بيتا، عندما أصروا على أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما دخل غار ثور، نسج العنكبوت خيوطه وجاءت حماماتان وباضتا أمام الغار، حتى تصرف نظر من يطاردون النبى عن وجوده فى الغار، فليس معقولا أن يدخل دون أن يهتك خيوط العنكبوت ويقلق مستقر الحمامتين.

تعلمنا هذا فى مدارسنا، تعامل معها من كتبوا كتب الدين لنا على أنها معجزات صغيرة حدثت أثناء المعجزة الكبرى وهى الهجرة، وكنا فى حاجة إلى وقت طويل لنعرف أن العنكبوت والحمامتان مجرد خرافة، فلم يحدث أن نسج عنكبوت خيوطه ليحمى النبى، ولم يحدث أن تركت حمامتان الدنيا كلها لتقفا أمام الغار كجزء من الخداع لمشركى قريش.

لن أعتمد على كتابات من يعتمدون العقل فى تناولهم للإسلام، لكن سأعتمد على من يأخذون من النقل دينا مقدسا لا يخرجون عنه، الشيخ السعودى وأحد أسس الوهابية الحديثة ابن عثيمين، ورد له سؤال يقول صاحبه: هل عش العنكبوت والحمامتان وارد يوم اختفى النبى صلى الله عليه وسلم فى غار ثور؟

وكانت إجابته: لا يذكر المؤرخون أن النبى صلى الله عليه وسلم حين اختفى فى غار ثور، عششت عليه العنكبوت ووقعت الحمامة على غصن شجرة، وهذا كذب لا صحة له، ولا فيه آية للرسول عليه الصلاة

والسلام، فأى إنسان تعشش العنكبوت وتكون حوله حمامه إذا رآه من يراه يقول: ما فى أحد، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام أعمى الله أبصارهم عنه، ولهذا قال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدمه لأبصرنا، لأنه لا يوجد مانع، فالعنكبوت والحمامة لا صحة لذكرهما عند اختفاء النبى صلى الله عليه وسلم.

تبقى إذن المعجزة الأكبر فى حادث الهجرة، وهى أن الله أعمى شباب قريش فلم يروا النبى وهو يخرج من بين أيديهم، وحتى هذه المعجزة فيها نظر، إنهم يعتمدون على آية فى القرآن، يفسرونها على نحو مادى بحت.

قالوا لنا إن النبى عندما خرج من بيته، أخذ حفنة من التراب، وقال شاهت الوجوه، فلم يره أحد، لكن لماذا لا يلتفت من يتحدثون عن هذه المعجزة إلى أن هناك أكثر من تفسير ورد فى حق هذه الآية.

التفسير الأول أورده مقاتل، يقول فيه: لما عاد أبو جهل إلى أصحابه ولم يصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وسقط الحجر من يده، أخذ الحجر رجل آخر من بنى مخزوم، وقال: أقتله بهذا الحجر، فلما دنا من النبى طمس الله على بصره فلم يره، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه.

التفسير الثانى يتبناه محمد بن إسحاق، يقول: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمية بن خلف يرصدون النبى ليبلغوا من أذاه، فخرج عليهم وهو يقرأ سورة يس، وفى يده تراب فرماهم به وقرأ الآية، فأطرقوا حتى مر عليهم النبى.

التفسير الثالث منسوب إلى الضحاك الذى يقول: وجعلنا من بين أيديهم سدا أى الدنيا ومن خلفهم سدا أى الآخرة، أى عموا عن البعث وعموا عن قبول الشرائع فى الدنيا.

لدينا تفسير مادى إذن للآية، يتحدث عن حدث بعينه، نزلت فى حقه الآية، ومن ظاهر ما قالوه أن الحدث ليس بالضرورة هو الهجرة، فقد اعترض كفار قريش النبى كثيرا، وحاولوا إيذاءه كثيرا، ويمكن أن يكونوا قرروا التخلص منه أكثر من مرة، وفى كل مرة من هذه المرات، كان الله يعميهم عنه، أو بالمعنى الأدق يحميهم منه، بأن يصرفهم أو يعطلهم، أو أن هناك من كان يصد الكفار عن النبى.

أما التفسير المعنوى للآية فيحيلها إلى الصدود عن الحق والغشاوة التى تمنع أصحابها من أن يعرفوا الطريق الصحيح.

أميل إلى أن النبى خرج من بيته قبل أن يصل إليه شباب قريش، وإلا لما ترك على فى فراشه، لو كانت المعجزة أن الله سيعمى أبصار من ينتظرونه أمام الباب، وقتها لم يكن فى حاجة لتعريض على بن أبى طالب إلى الخطر، فحتما لم يكن يعرف رد فعل شباب قريش على هذا الخدعة، وحتما كانوا سيقتلون عليا، الذى هو بالمناسبة لن يكون أعز عليهم من محمد.

لماذا أهتم بهذه التفصيلة تحديدا؟

إننا فى حاجة إلى التأكيد على أن النبى كان صاحب دعوة، وحتى ينصر دعوته، فقد كان يأخذ بالأسباب، كان يعرف كيف يبنى دولة وينتصر دون أن يكون فى حاجة إلى معجزات هى أقرب إلى الخرافات.

(٧)
لماذا لن يعود جيش محمد؟

كان هذا هو الهتاف الذى حلا للتيارات الإسلامية فى مظاهراتها خلال العقود الماضية " خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود"، لم يكن هتافا بقدر ما كان تعبيرا عن أمنية أن يعود جيش النبى محمد صلى الله عليه وسلم ليتولى الدفاع عن الأرض العربية وتحريرها من مغتصبيها، ولم يكن تعبيرا عن قوة بل انعكاسا عن عجز كامل، فلو أنهم كانوا قادرين على أن يحققوا أى نصر، لما استدعوا من الماضى معنى مجردا لا يمكن أن يتحقق منه شئ فى الواقع.

التفسير النفسى لاستدعاء جيش محمد كان كاشفا عن حالة الهزال التى وصلت إليها أمته، لكن التفسير السياسى – الذى استندوا فيه إلى أن من اغتصبوا الأرض لابد لهم من يد قوية تماثل جيش النبى محمد – كشف جهلهم الشديد بالمهمة التى من أجلها تم تأسيس الجيش النبوى.

فى مكة لم تكن هناك قوة منظمة تحمى الدعوة الإسلامية الوليدة، كان النبى يحتمى فى أهله وعزوته، ويصدر لخصومه الأقوياء والأشداء من صحابته، ما فعله عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما كان مثالا واضحا على ذلك، فبعد إسلامهما بدا أن قوة جديدة أضيفت إلى معسكر محمد.

بعد استقرار النبى فى المدينة، كان لابد من تغيير استراتيجية الحماية، انتقلت الدعوة الإسلامية من معسكر الهواية إلى معسكر الاحتراف، صاحب الدعوة لابد أن يكون حاكما وقائدا لجيش، ليس لأنه يريد أن يحمى

نفسه من كفار قريش، فقد أصبح فى منعة منهم بعد أن دخل فى حضن الأنصار، ولكن لأنه يريد أن يغزو قريش، أن يعود مرة أخرى منتصرا، ليفتح البلد التى أخرجوه منها، وهو ما حدث فى النهاية.

يحلو لمن يتحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يشير إليه باعتباره كان صاحب عبقرية عسكرية فريدة، رغم أنه ليس من الضرورى ونحن نتحدث عن النبى أن ننسب إليه كل عبقرية، وعندما نبحث فى التاريخ العسكرى للنبى، وهو التاريخ الذى يرصد أخبار سراياه وغزواته ومعاركه ووصاياه التى كان ينثرها بين يدى مقاتليه، بألا يقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا، ولا يقطعوا شجرة، وألا يأخذوا أحدا غدرا ولا غيلة، سنجد أن النبى لم يكن قائدا عسكريا عبقريا، بل كان نبيا مؤيدا من السماء، يستلهم من الله القدرة على إدارة الأمور جميعها بحكمة، وهو ما جعله فى النهاية ينتصر.

هل تذكرون ما حدث فى غزوة بدر؟

قرر النبى صلى الله عليه وسلم أن يبادر قريشا قبل أن تبادره، كان يعرف أنها لن تترك محاولته للهجوم على قافلتها التجارية تمر مرور الكرام، لأنها لو فعلت ذلك ضاعت هيبتها، وتجرأت عليها القبائل، لا تقوم لها تجارة ولا ينصلح لها حال ولا يصلب لها ظهر.

وصل النبى إلى أقرب مكان به ماء من أرض بدر، نظر الحباب بن المنذر بن الجموح إلى ما فعله النبى، تقدم منه وسأله مباشرة: يا رسول الله أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه ولا نقصر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

السؤال كانت له دلالته، فلو أن ما فعله النبى وحى من الله، لما استطاع أحد أن ينتصر عليه، لأنه نفذ ما طلبه صاحب المشيئة منه، أدرك النبى ما كان يرمى إليه الحباب، فرد عليه: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فاتحا بذلك الباب أمام رؤية أخرى قد تكون أكثر فائدة فى سير المعركة بإتجاه.

بدأ الحباب بن المنذر فى توجيه الحرب التى يقودها النبى صلى الله عليه وسلم إلى وجهة مختلفة تماما، قال: يا رسول الله هذا ليس بمنزل، ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهرك، ثم غور كل قليب بها إلا قليبا واحدا، ثم احفر عليه حوضا، فنقاتل القوم ونشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

تلقى النبى صلى الله عليه وسلم ما قاله الحباب بعقلية الإدارى الذى يهمه أن ينجح، وليس بعقلية القائد العسكرى الذى يظن فى نفسه عبقرية نادرة، وحتى ينتصر جيشه فلابد أن ينفذوا ما ذهب إليه من خطط، قال النبى: قد أشرت بالرأى، ونفذ خطة الخباب كاملة فانتصر.

فى غزوة الأحزاب كانت الفكرة التى أذهلت كفار قريش، وأرهقتهم هى " الخندق" الذى قام المسلمون بحفره حول المدينة، ولم تكن الفكرة من أفكار النبى كقائد عسكرى، ولكنها جاءت من سلمان الفارسى الذى شد الرسول على يديه، وقال له أمام أصحابه: سلمان منا آل البيت.

كان المسلمون يدركون خطورة المعركة مع قريش، انتصروا عليهم فى بدر، وانكسروا أمامهم قليلا فى أحد، وهو ما أغرى سادات قريش بأن يعيدوا الكرة، فينهوا كل أثر لمحمد وأصحابه، قرر محمد وجيشه أن يواجهوا.

كانت غزوة الخندق واحدة من ملاعب المخابرات النبوية.

نحن الآن فى حضرة نعيم بن مسعود، الصحابى الذى يطلقون عليه أنه أول رجل مخابرات فى تاريخ الإسلام.

كان نعيم بن مسعود قد أسلم دون أن يعلم قومه بذلك، قبل غزة الأحزاب ذهب إلى النبى، قال له: مرنى بما شئت، رد النبى: أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.

خرج نعيم من عند النبى فأتى بنى قريظة وخوفهم من انسحاب قريش وغطفان وباقى الأحزاب من الحرب، وأشار عليهم أن يأخذوا رهنا من أشراف قريش يكونوا بأيديهم، فقالوا له: لقد أشرت بالرأى، ثم أتى قريشا وأخبرهم أن يهود بنى قريظة ندموا على نقض العهد مع محمد، وأنهم عرضوا عليه أن يأخذوا له رجالا من أشراف قريش وغطفان حتى يضرب رقابهم، وحذرهم من أن يسلموا رجلا منهم رهينة عند يهود، ثم أتى غطفان وحذرهم كما حذر قريش.

كان لما فعله نعيم بن مسعود تأثير السحر، كادت الأحزاب أن تتفرق، وكانت هذه ضربة ضخمة لمن أرادوا حربا شاملة ونهائية على محمد والذين معه، لكنها لم تكن كافية، فتلقف النبى اقتراح سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة فنفذها على الفور، ولم تكن الفكرة من بين بنات أفكار سلمان، فقد رآها قومه فى فارس يلجأون إلى الخنادق كأداة من أدوات الحرب.

لقد نصر النبى بالرعب، قال هو ذلك، منحه الله هذه الميزة الرائعة، أن يلقى بالخوف فى نفوس أعداءه، فينتصر عليهم حتى قبل أن يلتقى بهم فى أرض المعركة، ونصر أيضا بإخلاص من كانوا حوله.

كانت المعارك صغيرة، لم يدخل الرسول فى حروب كبيرة، لكنه كان يريد تأصيل التقاليد التى أفلتت فى بعض المواقع، منها حصاراته ليهود المدينة، فالحصار لم يكن قاصرا على المقاتلين الكبار الذى جهزوا أنفسهم لمواجهة النبى، بل طال أطفالا ونساءً لم يكن لهم فى الحرب ناقة ولا جمل، ثم أنه كان ينهى عن قتل الأطفال والنساء والشيوخ العمد، لكنه لم يتحدث عن أثر الحروب التى لا يدخل آلهتها قرية إلا خربوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

جيش محمد الحقيقى لم يتكون فى حياته، وضع له الأسس والنظريات والأهداف، ثم بدأ من خلفوه فى تكوين جيش كان هدفه الأول، أن يغزو العالم من أجل نشر الدين الجديد، ومن أجل فرض العرب سيطرتهم على العالم.

جيش محمد لم يكن جيش دفاع أبدا، بل كان جيش هجوم، جيش فتح وغزو ونشر دعوة.

وهنا المفارقة التى لا يلتفت إليها من يطالبون بعودته، إنهم مغلوبون على أمرهم، يحتاجون من يدافع عنهم دون أن يبذلوا جهدا وعلى مستوى فهم ما جرى قبل قرون.

كان جيش محمد الذى تكون بعد وفاته يستمد المدد مما فعله النبى فى حياته، أخذوا منه زهده وشجاعته، فهم رهبان بالليل فرسان بالنهار، وهم يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة، الفارق الوحيد بينهم وبين من يرددون هذا الكلام الآن من أبناء التيارات المتأسلمة، أنهم كان يؤمنون بحق بأنهم لابد أن ينتصروا، فلم يكن أمامهم إلا النصر أو الشهادة، لأن الحياة تحت ظلال الهزيمة كانت ستعنى الجحيم بالنسبة لهم.